قصه قصيرة
بروز الحقيقة
مها سيد عبد الرحمن

الفصل الأول

صور متتابعة ظهرت أمام عينيه، ارتعدت معها أوصاله واحتقنت عيناه وتضاعفت نبضات قلبه، ألم بالغ مزَّق روحه تمنى لو أن ذلك اليوم لم يأت قط!

****

احتدم الشجار بين الأحفاد الخمسة كالعادة وتعالت أصواتهم قبل أن تخرسها تماماً صوت طرقة عالية أحدثتها عصاة الجدة أمينة والتي يعلمون جيداً ما الذي تعنيه، حدَّجتهم بنظراتها المشتعلة فسرى الخوف في عروقهم وهم ينظرون إليها في حذر، جلست على كرسيها وبدأت تسمع شكواهم كما تفعل دوماً، وبعد أن انتهوا قالت في هدوء وهي تحدق في وجوههم:

-"أحدكم يكذب! من الأفضل أن يعترف بنفسه قبل أن أحضر "برواز الحقيقة""

تحول وجه ناصر إلى اللون الأصفر بينما ابتسم سليم في ظفر وهو يرمقه بطرف عينه، تبادل كل من حسين وزين نظرة تحدي، وظلّ خالد يراقب المشهد في هدوء كعادته، فتحت الجدة أمينة كيسها الأسود الذي يلازمها في مثل تلك المواقف وأخرجت منه برواز خشبي قديم للغاية، متوسط الحجم، فارغ من المنتصف، تخبرهم دوماً بأنها وحدها من ترى الصورة التي تظهر بداخله والتي تعرف منها الحقيقة، طلبت من ناصر أن يتقدم نحوها ثم وضعت البرواز بالقرب من وجهه، احتقن وجهه بالدماء وزاغت عيناه وهو يحاول تثبيت نظره على البرواز، شبح ابتسامه ارتسم على شفتي الجدة، ثم طلبت منه الابتعاد بينما تقدم سليم ليقف مكانه، وفعلت معه مثلما فعلت مع ناصر قربت البرواز من وجهه فنظر إليه في ثقة، ثم كررت نفس الفعل مع كلٍ من حسين وزين وخالد، بعدها قربت نظارتها الطبية من عينيها ثم نظرت طويلاً بداخل البرواز قبل أن تقول بنبرةٍ صارمة:

-"ناصر كذَّاب! وعقابك البقاء في غرفتك حتى المساء"

تعالت صيحات الفرح من كل من الأخوين سليم وزين، بينما همس حسين في أذن أخيه الأصغر خالد قائلاً:

-"ذلك الفتى لا يكف عن الكذب، يستحق كل ما يحدث له"

لم يعقب خالد بكلمة وقد كان أمر آخر يشغل تفكيره، تابع الجدة أمينه بنظره حتى دخلت إلى غرفتها ثم ركض خلفها، طرق على الباب فأذنت له بالدخول، ابتسمت وهي تراقبه يقترب منها والفضول يقتات على رأسه، سألته في حنان:

-"ماذا تريد يا خالد؟"

أجابها وعينيه مثبتتين على الكيس الأسود قائلاً:
-" هل حقاً تظهر لك الحقيقة بداخل ذلك البرواز؟"

اتسعت ابتسامتها وقد كان خالد أصغر وأحب الأحفاد إلى قلبها لرجاحة عقله رغم أنه لم يتجاوز الثامنة من عمره بعد، فاجأته بقولها:

-"سأخبرك سراً يا خالد لم أفصح عنه لأي إنسانٍ آخر حتى هذه اللحظة، هذا البرواز العجيب قد وجده جدي عبد الغفَّار رحمه الله منذ زمنٍ بعيد، كان في السابعة والعشرون من عمره، عثر عليه أثناء نقلهم لجثث جبَّانة القرية حينما غمرتها المياه، كان مدفوناً بداخل أحد القبور، ما أن لمسه حتى سرت في جسده قشعريرة تشبه الكهرباء، تعجب لوهلة ثم وضعه بداخل ملابسه وتابع عمله، وبعد أن انتهى وعاد إلى منزله استلقى على سريره وهو ممسكٌ به يتطلع فيه بدقة، في تلك الأثناء دخلت الغرفة أخته جميلة وقالت في تردد:

-" سأخبرك بأمرٍ قد يغضبك قليلاً، زجاجة عطرك المفضلة قد سقطت على الأرض أثناء تنظيفي للغرفة وانكسرت"

كانت تعلم جيداً بأنه سيستاء كثيراً عند سماعه لهذا الخبر، فهذا العطر تحديداً يحتل في قلبه مكانةً خاصة لكونه هدية من خطيبته آنذاك جدتي رقية رحمها الله، لكن أن يحزن قليلاً أفضل من أن يعرف الحقيقة، كتم عبد الغفار غيظه في قلبه وقال في ضيق:

-"لا عليكِ سأشتري غيرها حينما يتوفر معي المال الكافي لذلك"

ابتسمت وهي تربت على كتفه ثم لفت نظرها ذلك البرواز الذي يمسك به بين يديه، فأخذته منه وحملقت فيه متعجبة ثم سألته:

-"ما هذا؟ من أين حضرته؟ يبدو قديماً للغاية"

همَّ بأن يحكي لها لكن ما أن وقعت عيناه على البرواز حتى خرجت من حلقه شهقة عالية وانتفض جسده في ذعر، فقد رأى بداخله صور متتابعة لأخيه الأصغر حامد وهو يأخذ زجاجة العطر ويضعها في حقيبته، ثم شجار دار بينه وبين جميلة وهي تحاول إعادتها منه قبل أن يتركها ويغادر المنزل، ظلَّ عبد الغفار لوهلة يحاول استيعاب ما رأته عيناه منذ لحظات قبل أن تختفي الصور ويعود البرواز فارغاً كما كان، انتزعه من يدها وظل يقلب فيه يميناً ويساراً فلم ير أي شيء يذكر، وجميلة تراقبه في ذهول محاولة فهم ما يجري، ثم التقط أنفاسه وسألها في حذر:

-"أين حامد؟" ظهر الارتباك جلياً على قسمات وجهها وأجابته بتلعثم:

-"لقد اضطر أن يسافر عائداً إلى عمله صباح اليوم، لم يتسنَّ له الوقت لانتظارك حتى تعود ليسلم عليك قبل أن يغادر"

ضيق حدقة عينه وهو يمعن النظر في وجهها ثم باغتها قائلاً:

-"واخذ زجاجة العطر معه رغم أنفي، مع أني أخبرته بكل وضوح أن يأخذ ما يشاء عدا هذه الزجاجة بالذات"

اتسعت عينا جميلة من المفاجأة لم تتوقع أن يكتشف حقيقة ما حدث بتلك السرعة، حاولت تهدئته لكنه طلب منها مغادرة غرفته فوراً، وبعد أن تأكد من إغلاقها للباب بعد انصرافها أمسك البرواز في ذهول وهو لا يفهم كيف حدث ذلك؟!

وهكذا مرت الأيام وأصبح أمر تفسير كيف يفعل البرواز ما يفعله لا يهمه مطلقاً، بعد أن اعتاد على كشف الحقائق بواسطته، كل ما عليه هو أن يجعل أي شخص ينظر إلى البرواز ليعرف ما يخفيه، فتظهر أمام عينه الحقيقة كاملة على هيئة صورٍ متتالية تُعرض كأنها فيديو بطئ، لا يراه ولا يسمعه أحد سواه، ثم يختفي كأن شيئاً لم يكن، أصبح يتفنن في الطرق التي يجبر بها الآخرون على النظر إلى البرواز دون أن يشعروا بذلك، كان الأمر مسلياً في البداية لكن مع مرور الوقت أصبح مهووساً بكشف الحقائق ومعرفة الأسرار، فتحول إلى كارثة حقيقية حينما اكتشف الكثير من الحقائق المؤسفة عمن حوله، فخسر أخوه حامد وانقطعت الصلة بينهما تماماً، ثم خسر الكثير من أصدقائه ومعارفه الواحد تلو الآخر، حتى كره البرواز كثيراً وقرر التخلص منه، حاول أن يكسره فلم يستطع، أضرم فيه النيران فليم يحترق، أصابه

الهم والكرب ولم يعد يعلم كيف يتخلص منه، سمعتُهُ يبكي ذات ليلة اقتربتُ من غرفته فوجدته يغادرها في عصبيه إلى خارج المنزل، تبعته دون أن يشعر فرأيته يحضر صندوقاً خشبياً قام بوضع البرواز بداخله وأغلقه بعدد كبير من المسامير ثم ربطه بسلسلة معدنيه، ودفنه في أرضٍ خالية تبعد عن المنزل عدة أمتار، ثم انصرف راكضاً إلى المنزل، كانت أمي هي من أخبرتني بسر ذلك البرواز الذي لا يعرفه سواها هي وجدتي فقط، انتابني الفضول حيال ما فعله فحفرت الأرض وأخرجت الصندوق، وكانت المفاجأة التي أذهلتني، رأيت الصندوق مفتوحاً على الرغم من كل ما فعله جدي أمام عيني قبل دقائق، فتحته وأخرجت البرواز وما أن لمسته حتى حدث الأمر ذاته معي شعرت بقشعريرة شديدة تسري في جسدي، لا أعرف لماذا اختارني أنا تحديداً فذلك لا يحدث مع كل من يمسكه، ومنذ ذلك الحين وقد أصبحت أرى الحقيقة بداخله، لكني أخفيت الأمر عن الجميع، تهللت أسارير جدي عبد الغفار عندما اختفى البرواز إلى الأبد وظن أنه نجح في التخلص منه، لم يعلم قط أنه كان في الغرفة المجاورة له، بداخل غرفتي، كنت أكثر حرصاً منه بكثير في استخدامه لم أخرجه من مكانه لسنواتٍ طوال، ولا أنكر أني قد ضعفت بعض المرات وكشفت به بعض الأسرار التي لم أسر كثيراً لكشفها إلا القليل منها، لكن بوجهٍ عام نجحت في إخفاء الأمر حتى رحل جدي وتبعته جدتي ثم أمي، ولم يعد هناك من يعلم بوجوده غيري!

وعن سؤالك الذي سألته في البداية فإجابته نعم أرى الحقيقة بداخله بالفعل!"

كانت حواس خالد كلها متنبهة لما تخبره به جدته، وما أن أنهت حديثها حتى باغتها وأخرج البرواز من الكيس الأسود، وإذا بجسده ينتفض في عنف في مشهدٍ مفزع، صاحبه صرخة جزعٍ انطلقت من حلق الجدة أمينة وقد أدركت فداحة فعلتها، فتملكها ندم شديد ممزوج بخوفٍ جارف على خالد من مصيرٍ مجهول قد يكون سبباً في تعاسته وتدمير حياته بأكملها!

الفصل الثاني

مرت السنين ولم يظهر برواز الحقيقة مع الجدة أمينة منذ ذلك اليوم، فبعد أن أدركت ما حدث مع خالد قامت بإخفاء البرواز في مكان لا يعلمه أحد سواها، بينما لم ينس هو ذلك اليوم مطلقاً، لكنه لم يجرؤ على سؤالها عنه ثانيةً بعد أن ثارت وحذرته بانفعالٍ بالغ من أن يخبر أحداً بما حدث ولا بما أخبرته به، ثم حملته عنوة إلى خارج الغرفة بمجرد أن اصابته تلك القشعريرة الشديدة التي لا يزال يذكرها جيداً.

بعد مرور نحو ثلاث عشرة سنة توفيت الجدة أمينة وتركت إرثاً كبيراً لأحفادها الخمسة، أخذ كل منهم نصيبه ثم انطلق كل من ناصر وزين وحسين في الدنيا الواسعة يشق طريقه نحو الحياة التي تمناها، بينما بقي خالد في القرية يزرع أرضه التي تركتها له جدته، وقد افتتح عدة محال يبيع فيها محصول أرضه المتنوع والوفير، أما سليم فبقي في منزل الجدة وقد كان من نصيبه في الإرث، ثم تزوج فيه بعد أن جدده بالكامل.

وذات يوم بعد ما يقارب السنتين عاد ناصر إلى البلدة في حالةٍ يرثى لها، طلب من خالد البقاء عنده بعض الوقت، أخبره بأنه قد مرَّ بضائقةٍ مالية كبيرة ضيعت أمواله كلها ولم يعد لديه مكان يذهب إليه، فطمأنه خالد بأنهم إخوة وماله تحت تصرفه كيف شاء.

بعد أسبوعين آخرين عاد حسين هو الآخر إلى القرية يشكي الأمرَّين من ضيق الحال، فطلب منه خالد البقاء والعمل معه، وبالطبع استجاب حسين لطلب أخيه وبقي في القرية واستمرا هو وناصر في العمل معه.

وبينما هم مجتمعين في منزل سليم ذات يوم، صُعِقَ خالد حينما وقعت عيناه على "برواز الحقيقة"، فوق أحد الأرفف في غرفة المعيشة وبداخله صورة تجمع سليم مع أخوه زين، قام بخطواتٍ مرتجفة وأمسك بالبرواز يتأمله في ذهول أثار استغراب سليم فسأله:

-"ماذا بك يا خالد؟"

فأجاب سؤاله بسؤالٍ آخر:

-"أين وجدت هذا البرواز؟"

ابتسم سليم وهو يجيبه ضاحكاً:

-"هل تذكره؟ إنه برواز الجدة أمينه، "برواز الحقيقة" كما كانت تسميه، لن تصدق كيف عثرت عليه! أثناء تجديد المنزل وجدته تحت إحدى البلاطات في غرفتها، لم أفهم كيف ولماذا وضعته هكذا، فقررت الاحتفاظ به ووضعته بين أغراضي ثم نسيت أمره تماماً، لكني عثرت عليه بالصدفة قبل يومين فوضعت فيه صورتي أنا وزين"

أنهى عبارته واكتسى وجهه بملامح حزن عميق، فهم خالد سببه فربت على كتفه قائلاً:

-"ألم يتصل حتى الآن؟"

هزَّ سليم رأسه نافياً وهو يجيبه بنبرةٍ يكسوها الألم:

-"مضى قرابة الشهر وأنا لا أعرف عنه أي شيء، أخاف أن يكون قد أصابه مكروه"

حاول خالد طمأنته بقوله:

-"لن يحدث بإذن الله ستجد اتصال منه قريباً جداً أنا على يقين من ذلك"

ثم التفت نحو ناصر قائلاً:

-"ألم تسافرا معاً من البداية متى وكيف افترقتما؟"

ازدرد ناصر ريقه وأجابه في برود:

-"مضى على ذلك وقت طويل، أخبرتك بأنه قد فارقني بعد أن طلبت منه فصل أمواله عن أموالي والعمل وحدي، ومنذ ذلك الحين وأنا لا أعلم عنه شيئاً"

حدجه سليم بنظرةٍ ذات مغزى قائلاً:

-"لكنه أخبرني بأنه هو من طلب ذلك ولست أنت"

أجابه ناصر في حدة:

-"إذن عندما يعود اسأله ثانيةً وسيخبرك بالحقيقة"

"الحقيقة!" رنت الكلمة في أذن خالد وتجمدت عيناه على البرواز في يده، فقربه من وجه ناصر وهو يتظاهر بالدهشة قائلاً:

-"يا إلهي! أترى كم يشبهان بعضهما؟!"

نظر ناصر إلى البرواز في ضيق وطلت من عينيه نظرةٌ غير مفهومه، لكنها كانت كافية لتتغير الصورة بداخل البرواز على نحوٍ لا يراه أحد سوى خالد، الذي تمالك أعصابه بصعوبةٍ بالغه وهو يرى حقيقة ما حدث بين ناصر وزين!

مجموعة من الصور تتابعت أمام عينه أظهرت شجار دار بينهما، وسمع زين يقول لناصر:

-" أنت لص خبيث، سرقت أموالي وأنا لا أريد العمل معك ثانيةً، سآخذ ما تبقى من مالي ولا تحاول رؤيتي بعد الآن"

شعر خالد بالسخط الشديد على ناصر لكنه كتم غيظه محدثاً نفسه بأنه قد نال جزاءه وخسر أمواله ولعله ندم على ما فعله مع زين، ثم مال على أذن سليم هامساً:

-"هل تسمح لي بالاحتفاظ بالبرواز؟"

نظر إليه سليم في تردد لكنه لم يعتد أن يرفض طلباً لخالد بالذات فوافق بعد أن استأذنه في أخذ صورته مع زين.

وبعد أن عاد خالد إلى المنزل جلس مع أخيه حسين وطلب منه أن يحذر كثيراً من ناصر وأن يراقبه جيداً أثناء العمل لكنه فوجئ بدفاعه الشديد عنه ووصفه لمدى أمانته ونشاطه، تعجب خالد بعض الشيء لكنه آثر السكوت، ثم راقبه وهو يغادر الغرفة وغمغم في خفوت:" يا لك من ساذج!"

أمسك خالد بالبرواز وأخذ يقلبه بين يديه ثم خطرت بباله فكره ستسهل عليه كثيراً جعل أي شخص ينظر إليه، سيضع بداخله مرآة!

****

في صباح اليوم التالي استيقظ خالد على صوت طرقات غير متوقعة في مثل ذلك الوقت، نظر في الساعة فوجدها تشير إلى السادسة والربع صباحاً، تعجب كثيراً ثم اتجه بخطواتٍ سريعة نحو الباب وما أن فتحه حتى تضاعفت دهشته أضعافاً، وجد

فتاة ليست من أهل القرية يضج وجهها بجمال هادئ، ارتبك كثيراً بسبب مظهره غير المنظم فهو يرتدي منامته، لكن ما باليد حيلة لقد رأته وانتهى الأمر لا مجال لتحسين الموقف، بادرته قائلة:

-" أستاذ خالد؟"

أجابها بتلعثم:

-"نعم أنا خالد "

تنهدت في ضيق وقالت بصوتٍ مضطرب:

-"أنا هدير، آسفه على ازعاجك في مثل هذا الوقت لكن الأمر ضروري للغاية"

طلب منها انتظاره في الشرفة المحيطة بباب المنزل من الخارج حتى يغير ملابسه، لم تمض دقائق حتى كان أمامها وفي يده صينية عليها كوب من الشاي وبعض الطعام، لكنها أبت أن تأخذ منه شيئاً وقالت في جدية:

-"جئتك من طرف الأستاذ زين"

اتسعت عينا خالد وقاطعها قائلاً:

-"هل هو بخير؟"

أجابته بقولها:

-" نعم هو بخير، كنت أعمل معه منذ فترة لكني تعرضت لظروف قاسية في الآونة الأخيرة بسبب مرض أمي التي لم يكن لها أحد سواي، وعندما توفيت أجبرني صاحب المنزل على مغادرته ولم أجد أحداً أطلب منه المساعدة سوى الأستاذ زين، فأعطاني مفتاح منزله المغلق هنا بالقرية لأسكن فيه فهو ليس بحاجته الآن، لكنه أخبرني بأن أحضر إليك أولاً لأخبرك لأن أخوه سليم عصبي المزاج وسينزعج حينما أخبره بالأمر"

لم يتردد خالد في أخذها إلى منزل سليم وإخباره بالموضوع، لكن سليم لم يشعر بالارتياح مطلقاً لقصتها فقال في عصبيه:

-"ولماذا لم يتصل بي هو بنفسه لإخباري؟ وخاصة أنني أحاول الوصول إليه بلا جدوى، أعطني رقم هاتفه الذي بحوزتك لأكلمه وأتأكد بنفسي مما تقولين"

بكت هدير بحرقة من رد فعل سليم الذي كانت تخشاه، فحاول خالد تهدئتها قائلاً:

-" لا بأس افعلي ما طلبه منكِ وسيكون كل شيءٍ على ما يرام"

قالت بصوتٍ مختنق:

-"أنا لا أعرف لماذا لم يحدثكم أستاذ زين بنفسه، هو أمر يخصه هو لا يخصني أنا"

ثم أخرجت مفتاح المنزل من حقيبتها وأعطته لخالد وهي تقول:

-"عندما علم بوفاة والدتي حضر إلى منزلي ليعزيني فأخبرته بأن صاحب المنزل أعطاني مهلة أسبوع لمغادرته وليس لدي مكان آخر أسكن فيه، فجاء إلي بعد يومين وأعطاني المفتاح وأخبرني بأن آتي إلى قريتكم، ليس عندي أي معلوماتٍ بشأنه ولم أحدثه في الهاتف منذ أن تركت العمل عنده والرقم الذي معي هو ذاته المسجل لديكم"

زفر سليم وأشاح بوجهه في ضيق، فقال خالد بحزم محاولاً تهدئة الموقف:

-"وجود مفتاح المنزل معها هو أكبر دليل على صدق حديثها، مشكلتك مع زين وليست معها"

رد سليم باقتضاب:

-"افعل ما تراه صحيحاً ليس لي شأن بالأمر"

أوصلها خالد إلى منزل زين، ثم تركها وانصرف ليحضر لها بعض الأغراض التي ستكون في حاجتها بلا شك.

لم تصدق هدير أنها دخلت المنزل أخيراً بعد كل ذلك القلق الذي عانت منه حتى هذه اللحظة، ثم ابتسمت في ظفر وهي شاردة الذهن تفكر فيما ستفعله في الأيام القادمة!

الجزء الثالث

تسللت إلى قلبه وتربعت فيه باقتدار، انشغل بها عن أي شيءٍ آخر، سلم خالد زمام عمله لأخيه حسين وبقي هو يهتم بشئون هدير يسمع منها ويخبرها ليقترب عالميهما من بعضهما البعض أكثر فأكثر، وفي غضون أسبوعين اتخذ قراره بالزواج منها!

اجتمع مع سليم وحسين وناصر وأخبرهم بقراره، امتعض سليم وأشاح بوجهه في ضيق فهو لم يتقبلها ولو لثانيةٍ واحده، بينما أطلت نظرات الغيرة من عيني حسين رغم محاولاته اخفاؤها، أما ناصر فلم يحرك ساكناً وكأن الأمر لا يعنيه على الإطلاق، لم يكن خالد بانتظار مباركاتهم أراد إخبارهم فقط لا أكثر ثم انصرف إلى منزله وهو يحلم بالغد ليفاتحها في الأمر.

بدا النهار مختلفاً ذلك اليوم لم يره بهذا الجمال من قبل، شمس الشروق ذهبية دافئة وسماء صباحية زرقاء لا يشوبها كدر الضباب، سار مبتهجاً يعانق الطرق إلى منزلها، طلب منها الخروج ليتحدث معها في أمرٍ هام فلبَّت طلبه بكل سرور، تضرَّج وجهها بالحمرة حينما أخبرها وابتسمت في حياء معلنةً قبولها، فشعر بأن الكون يرقص من حوله فرحاً، قال بنبرةٍ مبتهجة:

-"سنبدأ من الغد تجديد منزلي، اختاري فرشه وألوانه كما تشائين"

لمعت عيناها في حبور منقطع النظير وقد ابتسمت لها الحياة من جديد، وبالفعل بدأوا على الفور من صباح اليوم التالي، امتلأ منزل خالد بالعمال يعيدون طلاءه وظلت هي تختار ما يروقها من ألوان، انشغل خالد مع العمال لبعض الوقت وعاد إلى الردهة فجأة ليجدها تنهي مكالمة هاتفية بشكلٍ سريع بينما اعتلت وجهها نظرات مرتبكة، تعجب لأمرها بعض الشيء وسألها إن كان هناك مشكلة ما؟ فأخبرته بأنه اتصال من جارتها في منزلها القديم تخبرها بسكن أناس آخرين في شقتهم فانزعجت قليلاً، أشفق خالد لحالها وابتسم في أسف، ثم حاولت تجاوز الأمر فاقتربت من المرآة المعلقة على الحائط تتأكد من اعتدال غطاء رأسها، نظر خالد إلى المرآة التي كانت بداخل برواز الحقيقة فتجمدت الدماء في عروقه حينما ظهرت أمامه صورتها تتحدث في الهاتف وهي تقول في حدة:

-"لا يجب أن يسير كل شيء وفقاً لأوامرك، فعلت كل ما طلبتَه مني حتى الآن و..."

ثم ظهرت صورته عندما وصل إلى الردهة فأغلقت المكالمة، شعر بدوار يكتسح عقله، اختلج قلبه بين ضلوعه وخارت قواه حتى أوشك على السقوط، ركضت هدير باتجاهه محاولةً مساعدته على التوازن فأزاح يدها في عصبية، تعجبت كثيراً لردة فعله وسألته في دهشة:

-"ماذا بك؟"

أجابها باقتضاب:

-" لا شيء! يكفي العمل لهذا اليوم، سأعيدك إلى منزل زين وسنتابع غداً"

ثم حدق فيها لوهلة وقال في صرامة:

-"هل حدثكِ زين ليطمئن على وصولك إلى منزله؟"

زوت بين حاجبيها في ضيق واجابته في عصبية:

-"لا لم يفعل"

تمنى لو أنها التفتت نحو البرواز ولو لدقيقة واحدة ليعلم إن كانت صادقة أم لا لكنها أنهت عبارتها وغادرت المنزل فوراً بخطواتٍ غاضبة.

ظل خالد طوال اليوم يفكر في تفسير ما سمعه، هل يواجهها بالأمر؟ لكنها بالطبع لن تخبره بالحقيقة، شعر بالألم يمزق قلبه ماذا سيفعل؟ لقد أحبها بالفعل، لكنه انتهى إلى حتمية تأجيل أمر الزواج حتى يكتشف ما تخفيه.

ذهب إلى منزلها في اليوم التالي وكان يعلم يقيناً أنها لا تزال غاضبة منه، أخبرته بعدم رغبتها في متابعة العمل في منزله اليوم فقال بغير اكتراث:

-"كنت قادم لأخبرك بأنني قررت ذلك أيضاً"

امتقع وجهها ولم تفهم ما يعنيه فاستطرد حديثه قائلاً:

-"سنأخذ اليوم إجازة، ليس هناك داعي للعجلة، سآخذكِ في رحلة لنتنزه قليلاً، زفرت في ارتياح وقد أدركت أنه يحاول مصالحتها، فقالت في برود:

-"وهل في قريتكم هذه مكان يصلح للتنزه؟"

أجابها مبتسماً:
-"في الحقيقة لا! لكن في البلدة المجاورة أماكن رائعة يذهب إليها الناس من جميع القرى المجاورة.

بعد نحو الساعة كانا يجلسان في مطعم على الشاطئ بالبلدة المجاورة في انتظار الطعام، هي تتحدث بلا توقف وهو لا يسمع حرفاً مما تقول بل كان يتأمل وجهها الطفولي البريء وضحكتها الساحرة، شعر لوهلة أن ما حدث بالأمس كان مجرد حلم مزعج وانتهى، تردد في عقله سؤال:

-" ماذا لو أن البرواز هو الذي يكذب؟ ما الدليل على أن ما يراه بداخله هو الحقيقة؟ ربما هو حالة من الوهم لا أكثر"

تمنى لو كانت تلك هي حقيقة ما يراه بداخل البرواز، قطع تفكيره سؤال غريب اخترق مسامعه للتو، سألته قائلةً:

-"سمعت الأستاذ زين يقول ذات مرة أن إرث جدتكم قد قُسِّم بينكم بالتساوي، لكن ما أراه الآن أنك أكثرهم أموالاً، بل ان ما تمتلكه يزيد عما يملكونه مجتمعين، كيف استطعت فعل ذلك؟"

شعر بعدم الارتياح لسؤالها لكنه أجابها في هدوء:

-"كل واحد منا اختار الطريقة التي يدير بها أمواله والبركة والتوفيق من عند الله هي التي تزيد الرزق وتكثره"

عقبت في وجل:

-"ونعم بالله" ثم تابعت في خبثٍ قائلة:

-" ظننت أن لديك سرٌّ تخفيه، هو سبب كثرة أموالك لم تخبر أحداً منهم عنه"

غصة اعتصرت قلبه وقد زادت عبارتها من انقباضته، وقبل أن يرد بحرف واحد وصل الطعام وقام النادل بوضعه أمامهما وما أن انصرف حتى أمسك خالد بالملعقة متظاهراً بالبدء في الأكل ثم نثر بعض حبات الأرز عمداً على وجهها، انتفضت في

انزعاج فاعتذر منها كثيراً وأعطاها بعض المناديل لتمسح وجهها، ثم أخرج المرآة التي بداخل البرواز من كيس بحوزته ووضعها أمامها قائلاً:

-"قد تحتاجين هذه!"

ارتفع حاجبيها في دهشة وقالت مستغربة:

-"نعم أحتاجها كثيراً! كيف خطر ببالك إحضارها؟"

اجابها في هدوء:

-"كنت أنوي إعطاؤها لك لتبقى في منزلك إلى أن ننتهي من طلاء الجدران حتى لا تنكسر لكني نسيت وظلت معي حتى جئنا إلى هنا"

ثبتها أمام وجهها فنظرت فيها وهي تزيل بقايا الطعام عن وجهها، ثم سألها قائلاً:

-"وهل أخبركِ زين أيضاً بشأن السر الذي أخفيه؟"

اتسعت عيناها من المفاجأة وردت في تلعثم:

-"بالطبع لا، إنه اعتقاد شخصي خطر ببالي حينما رأيت الفارق الكبير بينك وبينهم"

قلب البرواز في هدوء وهو يتابع تلك الصور التي ظهرت متتالية أمام عينه لتكشف له عن حقيقة لم تخطر بباله قط!

كتم بصعوبة شهقة مباغته وهو يرى صورتها تجلس في مكانٍ ليس في القرية تتحدث لكن ليس مع زين بل إنه ناصر!

سمع صوته في وضوح وهو يقول لها:

-"يستحيل أن تتضاعف ثروة خالد بهذا الشكل من بيع بعض المزروعات لا شك أن هناك سر يخفيه يدر عليه المال بهذا الشكل ويجب أن نعرفه!"

شرد ذهنه بعيداً وقد تجمدت ملامحه وكأنه تحول إلى تمثال وأسئلة تعتصر ذهنه بلا توقف:

-" هدير وناصر؟؟ كيف ومتى! هل هو الذي كان يحدثها في الهاتف؟ وأين زين من كل هذا؟ إن كان ناصر هو من أرسلها إلي ليعرف سري فكيف حصلت على مفتاح منزل زين؟"

"خاااالد! أين ذهبت؟"

صاحت بها هدير وقد تذمرت من شروده المفاجئ، شعر بضربات قلبه تتعالى وغلت الدماء في عروقه فاحمر وجهه وهو ينظر إليها في غيظٍ عارم، ثم خطرت بباله فكرة، فحاول جاهداً السيطرة على أعصابه ورسم ابتسامة مصطنعة بذل جهداً خرافياً لرسمها ثم قال لها في خفوت:

-" أنتِ مُحقة! أنهي طعامك أولاً وسأخبركِ كل شيء عن سرّي الثمين!"

برقت عيناها واتسعت ابتسامتها ثم أخذت تتناول طعامها في عجلة، بينما هو غارق في بحرٍ من الخذلان والحسرة يتمنى لو يصرخ ويبكي يعاتبها ويتشاجر معها فتخبره بالحقيقة ثم يسامحها، لكن مهلاً هل تحبه من الأساس؟ رغم أن إجابة هذا السؤال أصبحت واضحة إلا أنه أبى أن يصدقها فلم يشعر سوى بيده تضع البرواز قبالتها، فابتسمت قائلةً:

-"بإمكانك أن تعيدها إلى الحقيبة لم أعد في حاجتها"

تجاهل عبارتها وقال بنبرةٍ جادة:

-" هل تحبينني يا هدير؟"

دخلت في وصلة من السعال وقد سقطت بعض حبات الأرز في قصبتها الهوائية لتسد مجرى الهواء من الارتباك الذي أصابها بسبب سؤاله، ناولها كوب من الماء، فأفرغته في حلقها دفعة واحدة، تنحنحت ثم أخذت نفساً عميقاً ونظرت في المرآة لتطمئن على مظهرها بعد ما حدث للتو، وقالت دون أن تنظر في عينه:

-"هل لازلت تجهل إجابة سؤالك يا خالد! بالتأكيد أحبك وإلا ما كنت قبلت الزواج منك"

نظر إلى البرواز بعينين متوجستين، فرآها تقول لناصر:

-"سأفعل أي شيءٍ من أجلك فأنا لم ولن أحب أحدٌ غيرك ما حييت"

شعر بروحه تحترق وكأن خنجر مسموم غُرس في قلبه للتو، تمنى لو كان ما يحدث هو مجرد كابوس وسيفيق منه في أية لحظة! لكن قوة خفية سرت في عروقه فجأة قوة لا تحمل بين طياتها سوى الشر تسمى الرغبة في الانتقام!

الجزء الرابع

"وأخيراً عرفت سره!"
قالت هدير عبارتها في فرحة عارمة مخاطبةً ناصر في الهاتف بعد أن أعادها خالد إلى منزل زين وانصرف إلى منزله، تهللت أسارير ناصر وطلت من عينه نظرة كنظرة ذئبٍ جائع قد حصل على فريسته للتو، وقال في ترقب:

-"أخبريني يا وش السعد!"

اعتدلت في جلستها واكتسى صوتها بنبرة أكثر جدية ثم بدأت في الحديث:

-"لقد عثر في قطعة الأرض التي ورثها عن جدتكم أمينه على كنز يعود لجدها عبد الغفار لم تخبر عنه أحد سواه"

شعر ناصر بنيران حارقة تشتعل في قلبه، فقال في غيظ:

-"لطالما أحبته أكثر منا، وها هي قد فضلته علينا في الإرث أيضاً، هل عرفتي أين يخفيه؟"

مطت شفتيها وهي تجيبه:

-"لا! لم يخبرني ما هو ولا أين يخفيه كل ما قاله أنه سيأتي غداً لاصطحابي إلى مكانه"

غمغم في خفوت:

-"رائع إذن لن تكونا وحدكما" ثم ضحك كثيراً وهو يتخيل نفسه يسرق كنز خالد الثمين!

****

في مساء اليوم التالي..

وصل خالد إلى منزل زين ليصطحب هدير، تعجبت كثيراً لانتظاره حتى المساء فقد اعتادت دوماً أن يخرجا باكراً في ضوء النهار فالمنطقة موحشة للغاية ليلاً، وتضاعفت دهشتها أكثر حينما أخبرها بأن المكان الذي سيذهبان إليه في بلدةٍ مجاورة وليس بداخل القرية!

وبعد مرور نحو الساعة وصلا إلى المكان المشهود، مستودع قديم يقع في أطراف البلدة يحيطه أراضي خاليه من كل اتجاه، كان يبعد عنهما مسافة ليست بالقليلة تابعا طريقهما نحوه سيراً بعد أن نزلا من سيارة الأجرة، شعرت هدير بالارتباك الممزوج بالخوف فالمكان مظلم ومهجور، حتى السماء كانت قاتمة لا قمر فيها، وأصوات صفير الرياح الممتزج بنباح الكلاب تزيد المشهد رعباً، أحس خالد بخوفها فحاول طمأنتها قائلاً:

-"لا تخافي، يوجد كشافات تحيط بزوايا المستودع الأربعة، ستقلب الليل نهار بمجرد أن أضيئها"

وبالفعل ما أن وصلا إليه حتى أضاء خالد الكشافات فتغير المنظر كلياً، تنفست هدير الصعداء وقد بدأت تشعر بالارتياح بعض الشيء، فتح خالد القفل الكبير الذي يغلق باب المستودع ثم نظر إليها وهو يشير بيده إلى الداخل ويقول ساخراً:

-"إلى الكنز"

اتسعت ابتسامتها واتقدت عيناها في فضول ثم سارعت بالدخول، لكنها ما لبثت أن تلاشت ابتسامتها سريعاً وزوت بين حاجبيها حينما وجدت المستودع شبه فارغ! ليس به سوى مصباح صغير مثبت في منتصف حائطه الشمالي، وأسفله تماماً مرآة خالد التي كانت في منزله معلقة على الحائط، وتحتها كرسي صغير! وفي الجهة المقابلة له صندوقين كبيرين، وقبل أن تلتفت إلى الخلف لتفهم من خالد أين الكنز بالتحديد؟ فوجئت بأضواء الكشافات بالخارج تُغلق ويغلق معها المصباح ثم شعرت بضربة قوية أسفل رأسها أفقدتها وعيها على الفور!

****

تعجب ناصر كثيراً حينما رأى أضواء الكشافات تُغلق خاصةً أن خالد وهدير لم يخرجا من المستودع بعد، وكان قد تبعهما منذ اللحظة التي غادرا فيها منزل زين، اقترب من المستودع في حذر، حاول النظر من النوافذ فلم ير سوى ظلام كالح لا يظهر شيء، اقترب من الباب وأرهف السمع لكنه لم يسمع أي صوت يشير إلى وجود أحدٍ بالداخل، تساءل في دهشة:

-"هل يعقل أن يكونا قد غادرا من باب آخر؟"

ثم قرر الدخول ليتحقق من الأمر بنفسه، تسلل بخطوات بطيئة وهو يجول بنظره داخل المكان في حذر، لكن الظلام كان شديداً، سار بمحاذاة الجدار تحسباً لوجود أحد وفجأةً سمع صوت الباب يغلق، سارع بإخراج هاتفه المحمول ليضيء كشافه لكنه شعر بضربات مباغته طرحته أرضاً!

حاول المقاومة لكنه لم يستطع، آلام مبرحة اجتاحت جسده خارت معها قواه، أُضيء المصباح ليجد أمامه سليم يقف أسفل البرواز الذي بداخله المرآة بعد أن قيده إلى الكرسي ووضعه في منتصف المستودع ، تعجب ناصر كثيراً وصاح في غضب:

-"أنت تعرف بأمر الكنز إذن! اقتسمتماه وحدكما"

حدق فيه سليم في اشمئزاز وعقد ساعديه أمامه وهو يقول في صرامة:

-"أين زين؟"

أجابه ناصر في عناد:

-"أخبرتك مئة مرة بأنني لا أعرف عنه شيئاً!"

في تلك اللحظة رأى ناصر انعكاس شيء يتحرك خلفه في المرآة، فحدق فيها في هلع، وكان ذلك ما يريده خالد بالضبط والذي كان يختبئ خلف أحد الصندوقين الكبيرين، نظر خالد إلى البرواز فاختلج قلبه في صدره وارتجف جسده في عنف من هول ما رأى فبداخل البرواز تراصت أمامه صوراً متتالية تكشف حقيقة ما حدث لزين!

****

وقبل أن يعي خالد ما رآه للتو طرح سليم سؤاله التالي على ناصر:

-"لماذا عُدت إلى القرية؟"

دُهش ناصر لطريقة سليم في السؤال فقد ظن أنه لن يتجاوز أمر زين بتلك البساطة، ولن تسكته الإجابة التي أخبره بها منذ قليل لكنه على عكس ما توقع لم يجادله في حرفٍ مما قاله، بل وانتقل إلى موضوعٍ آخر، أعاد سليم سؤاله في عصبية فتعمد ناصر الرد ببرود قائلاً:

-"لا أفهم ماذا تفعل بالضبط؟ أخبرتكم ما حدث معي مراراً وتعرف جيداً إجابات تلك الأسئلة، لكن لا بأس سأخبرك ثانيةً، عدت إلى القرية لأنني خسرت أموالي ولم يعد لي مكاناً أذهب إليه"

ما أن أنهى عبارته حتى رأى خالد في المرآة يخرج من خلف إحدى الصندوقين وعينيه مثبتتان عليها، كان خالد في تلك اللحظة يعيش في عالمٍ آخر مع ما يراه ويسمعه وحده، تطلع فيه سليم في ذهول ممزوج بالقلق الشديد فملامح الذعر التي ترتسم على وجه خالد قد أثارت مخاوفه إلى أقصى حد وكذلك تغيير الخطة التي اتفق معه على تنفيذها فلا يزال هناك عدة أسئلة يُفترض أن يطرحها على ناصر أولاً قبل أن يظهر خالد! لكن هَول ما رآه أفقده قدرته على الانتظار!

كانت تلك هي الخطة التي رسماها معاً بالأمس بعد أن قام خالد بتوصيل هدير إلى منزل زين، اتجه مباشرةً إلى سليم وهو في حالةٍ ترثى لها، أخبره بكل شيء وبسر "برواز الحقيقة" وما عرفه عن ناصر وهدير، اعترته دهشة عارمة لأمر ذلك البرواز لكنه قرر تجاوز الامر مؤقتًا شفقة على حال خالد اخذ يفكر في طريقة لمساعدته ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يشعر بالارتياح لهدير لكن وجود صلة بينها وبين ناصر كان آخر ما يمكن أن يخطر بباله، ربت على كتف خالد في أسف، وجلسا يفكران في وسيلة لكشف حقيقة ما يحدث، وما يخفيه ناصر بشأن زين، ثم كانت فكرة سليم في تأجير ذلك المستودع ليكون وسيلة للانتقام منهما، وليس فقط لمعرفة حقيقة ما يخفيانه.

****

تعالت تأوهات هدير وقد بدأت تستعيد وعيها وآلام مبرحة تجتاح رأسها، لتدرك بأنها مقيدة اليدين والقدمين، بعد أن قيدها خالد ثم وضعها خلف أحد الصندوقين، صاح ذلك الأخير مخاطباً سليم:

-"علينا المغادرة في الحال!"
اتسعت عينا سليم وقد بدت عليه أمارات عدم الفهم وهو يراقب خالد يتجه نحو البرواز لينزعه عن الحائط، بينما قال ناصر في استهزاء:

-"سأصل إلى كنزك مهما طال الوقت! أنت لا تعرفني جيداً"

التفت إليه خالد في عصبيه ثم اتجه نحوه كبركانٍ ثائر وصفعه على وجهه بكل ما أوتي من قوة وهو يهدر في غضب:

-" ستدفع ثمن كل أفعالك أيها الحقير ولن تمس قرشاً واحداً من أموالي بعد الآن"

حدق فيه ناصر بكل غضب الدنيا ثم انفجر يقهقه كالمجنون حتى أن سليم شعر بالخوف من منظره، ثم قال في تحدي ساخر:

-" لم يخطر ببالي فعلاً أن آخذ قرشاً واحداً من أموالك بعد اليوم" ثم تابع قهقهته المخيفة، تجمد خالد مكانه لثواني محاولاً فهم ما يعنيه، لم ينتبه أنه كان يمسك البرواز باتجاه ناصر سوى عندما نظر إليه وهو يتابع في سخرية:

-"ثم أنني لا أفهم كيف لرجلٍ في مثل سنك أن يسير حاملاً مرآةً في يده؟!"

أمسك خالد بالبرواز ونظر إليه في بطء، شعر بأن الأرض تموج تحت قدميه وتصلبت حواسه وراح لون وجهه، ارتعدت أوصاله واحتقنت عيناه وتضاعفت نبضات قلبه، ألم بالغ مزَّق روحه تمنى لو أن ذلك اليوم لم يأت قط، اليوم الذي منحه القدرة على رؤية حقيقة أليمة كالتي شاهدها للتو، فقد فهم معنى عبارة ناصر والذي كان آخر ما يمكن أن يخطر بباله!

ضيق ناصر حدقة عينه وهو يتابع ما يفعله خالد في استغراب قبل أن تنطلق من حلقه شهقةً عالية وهو يقول:

-""برواز الحقيقة" أنت ترى الحقيقة بالفعل! لم تكن الجدة أمينه تخدعنا!"

في تلك الأثناء سمعوا أصوات جلبة بالخارج قبل أن يدخل عدد من الرجال إلى المستودع، ثم خاطب أحدهم خالد قائلاً:

-" نعتذر على التأخير"

بذل خالد مجهوداً خرافياً ليجيبه في صرامة:

-"ابقوا هنا حتى أعود مهما طال الوقت، واحرصوا على ألا يغادرا المستودع حتى عودتي، ولا أريد أن يعرف أحد بالقرية أي شيء عما يحدث هنا وخصوصاً حسين!"

اتسعت حدقتا ناصر وهو يحملق فيه فرمقه خالد بنظرةٍ تقطر كرهاً، ثم اتجه نحو باب المستودع ليغادره متجاهلاً توسلات هدير وبكاءها ليطلق سراحها قبل ذهابه.

ركض سليم خلفه محاولاً اللحاق به وخالد يطلق العنان لقدميه بلا توقف، حتى صاح سليم في عصبيه:

-"توقف يا خالد يكفي هذا! أخبرني ماذا عرفت وإلى أين أنت ذاهب؟"

توقف خالد والتفت إليه ببطء وقد أدرك للتو أنه لم يخبره بعد، أطلت من عينه نظرة إشفاقٍ انخلع لها قلب سليم قبل أن يجيبه:

-"سنذهب لنبحث عن زين! سأخبرك بكل شيء! حان الوقت لتعرف حقيقة ما يجري لكن ما ستعرفه على قدر ما سيبدد حيرتك ويجيب تساؤلاتك على قدر ما سيسلبك صفاء روحك إلى الأبد! "

الجزء الخامس

بعد أن أخذ كل من زين وناصر نصيبهما في إرث جدتهما أمينة، قررا مغادرة البلدة سوياً ليبتعدا عن أعين خالد وسليم تحديداً، حتى يشعران بحريتهما في التصرف وقد كانا منذ صغرهما الأكثر توافقاً، وبالفعل نجحا في تأسيس تجارة خاصة بهما في إحدى المدن البعيدة، وكعادة ناصر كان يستخدم كل الحيل الممكنة لزيادة أرباحه، لا يتردد للحظة في الكذب أو الغش طالما سيمرر ذلك البيعة ويحقق الهدف المرجو منها، لم يكن زين يفعل مثله لكنه أيضاً لم يكن يبالي بما يفعله ناصر، بل كان يعتبر ما يفعله مهارة لا يمتلك هو مفاتيحها، وبعد فترة قام بتعيين هدير كموظفة حسابات، لكن ناصر لم يكتفِ بما لديه خاصةً بعد أن تعرف على صديقٍ جديد يدعى سلطان أقنعه بدخول صفقاتٍ عديدة عن طريق مبدأ الأجل الذي يستخدمه بعض التجار الكبار، يعطونه بضائع ويقبضون جزء من قيمتها ويؤجلون الباقي حتى ينتهي من بيعها، قام سلطان بنفسه بأخذه إليهم وحضر جميع الاتفاقات التي دارت بينهم، سارت الأمور على خير ما يرام في البداية، وبعد عدة أشهر قرر ناصر مضاعفة الكميات التي يحصل عليها منهم، وخدعهم بضمانات غير حقيقية حتى نجح فيما يريد، وكان ينوي الهروب بها والحصول على أرباحها وحده وقد اعتبرها صفقة العمر!

وبالطبع حرص حرصاً شديداً على أن يخفي أمر تلك الصفقات عن زين تماماً من بدايتها، لكن حدث ما لم يخطر له على بال، سبقه سلطان والذي كان على علمٍ كامل بمكان البضائع، وقد كان ناصر يخفيها بعيداً عن المخزن المعتاد الذي يضع فيه ما يلزم تجارته هو وزين، سرق سلطان بضاعة ناصر بالكامل واختفى، ووجد ناصر نفسه في ورطة كبيرة وهو ملزم بسداد قيمة تلك البضاعة للتجار، فلم يجد أمامه سوى أموال زين، اتفق مع هدير على التلاعب في الحسابات -مستغلاً مشاعرها تجاهه والتي كان يعلمها جيداً رغم محاولاتها الفاشلة لإخفائها- حتى يتسنى له اختلاس مبلغ يكفي لسداد إحدى الدفعات التي اقترب موعدها وإلا سيكون مصيره السجن إلى أن يدبر أموره فيما تبقى، لكن زين اكتشف الأمر وقام بطرد هدير وتشاجر مع ناصر شجاراً كبيراً وقرر فضّ الشراكة بينهما والعمل وحده، وكان هذا يعني بلا ريب نهاية ناصر، وبالطبع لم يكن هو ذلك الشخص الذي يقبل بالهزيمة ففكرَّ كثيراً ثم اتخذ قراره!

علمَ ناصر أن التجار قد عرفوا بما فعله به سلطان رغم أنه حاول إخفاء الأمر عنهم واكتشفوا خداعه لهم، وأدرك من رسائل التهديد التي أرسلوها إليه، بأنهم لن يكتفوا بسجنه، بل قد يمتد الأمر لقتله إن وقع في قبضتهم بعد انتهاء المهلة الأخيرة للسداد.

أعد لخطته جيداً ثم شرع في تنفيذها، أخذ بمراقبة زين لفترة وذات يوم أثناء عودته إلى منزله، اختطفه ناصر إلى منطقةٍ نائية وحاول إجباره على توقيع بعض الأوراق التي حضرها مسبقاً، والتي تقضي بتنازل زين عن جميع أمواله وأملاكه لصالحه، ثم هدده إن لم يفعل فسيقتله ويترك جثته تنهشها الكلاب حتى لن يعثر أحد له على طريق، لكن زين استقبل تهديده بوابل من الشتائم فانفجرت الدماء في عروق ناصر ولم يشعر بنفسه سوى وهو يهوي بعصاً حديدية على رأس زين، الذي سقط غارق في بحر من الدماء!

ارتعدت أوصاله خوفاً وقد ظن أن زين فارق الحياة، لم يكن ينوي قتله بالفعل كان يهدده فقط، فكر في أن يتركه ويهرب لكنه أدرك أنه لو اكتُشِف أمر زين فسيكون هو المتهم الأول بعد الشجار الكبير الذي دار بينهما والذي يشهد عليه جميع العمال الذين يعملون معهما، وبسرعة البرق خطرت بباله فكرة أسرع في تنفيذها، قام أولاً بأخذ جميع الأموال التي في جيب زين ومفتاح منزله وبطاقة هويته، ثم حمله واتجه به نحو مستشفى قريبة وأخبرهم بأنه قد تعرض لحادث سيارة، لكن بعد أن قام الطبيب بفحصه خرج إلى ناصر بنظرات متشككة، أخبره بأن حالته خطيرة ويمكن أن يموت في أية لحظة، وقد عرف بأن إصابته لا يمكن أن تنتج عن حادث سيارة وهدده بإبلاغ الشرطة، فقام ناصر بدفع مبلغ لا بأس به له ليسكت ويكتب تقريراً عن حالته يظهر الأمر على أنه حادث سيارة حتى يؤمن نفسه إذا ساءت الأمور، ثم جلس ينتظر خبر وفاته حتى يتخلص من هذا الكابوس من ناحية ومن ناحيةٍ أخرى حتى يحصل على مراده بمنتهى السهولة، فهو يعلم جيداً أن زين لا يحتفظ بأمواله في البنوك، بل جزء منها هو تلك البضائع التي في المخزن، والجزء الآخر هو الأموال النقدية ويحتفظ بها في منزله والذي مفتاحه في جيبه، كل ما عليه أن يستولي على كل شيء سريعاً ويختفي، شيء واحد كان يؤرقه وهو أن ينجو ويبلغ عنه حينها سيكون الموقف سيئاً للغاية، فقرر الإسراع بتنفيذ ما يفكر به!

سارع بالذهاب إلى منزل زين ليبحث عن النقود وأثناء بحثه عثر على مفتاح منزله الذي في القرية فأخذه وهو يفكر في كيفية الاستفادة منه إذا قضت الحاجة لذلك، فهو

مكان مناسب تماماً للاختباء من التجار، وفي تلك الأثناء جاءه اتصال من المستشفى فتهللت أساريره لكن وجهه امتقع حينما أخبره الطبيب بأن زين تجاوز مرحلة الخطر بمعجزه حقيقية وسيفيق في غضون ساعات، ضاعف ناصر من سرعته في البحث عن النقود وهو يغمغم في سخط لبراعة زين في إخفائها، وبعد نحو الساعة عثر عليها أخيراً!

قام يتراقص فرحاً لكن فرحته لم تدم طويلاً وقد رنَّ هاتفه باتصال جديد من المستشفى، أجاب في توتر فأخبره الطبيب بأن المريض قد أفاق لكنه لا يتذكر شيئاً على الإطلاق لا يتذكر حتى اسمه، تهللت أساريره وأخبره بأنه سيأتي إليه في الحال، لكن الطبيب أخبره بأنها حاله مؤقته لا أحد يعلم متى ستزول وتعود إليه ذاكرته وقد تمتد لشهور، وأمره بالانتظار حتى الصباح ليقرر إن كانت حالته تسمح بالخروج أم لا فلم يعترض وقضى ليلته يحتفل بنصره العظيم ويفكر فيما هو قادم!

وقبل حلول الصباح اقتحم المنزل رجلان عرفهما بمجرد أن وقعت عيناه عليهما، كانا من رجال أحد التجار، خشي أن يقتلاه فسلم لهما المال كله بعد أن قاما بضربه وتلقينه درساً قاسياً، فعاد إلى نقطة الصفر من جديد.

فكر في أن يهرب ويترك زين في المستشفى لكن لو فعل ذلك فلن يتركوه ومعهم صورة هويته ورقم هاتفه وسيورط نفسه في أمرٍ لا يُحمد عقباه، يجب أن يذهب لإخراجه أولاً، وبالفعل ذهب إلى المستشفى فأخبره الطبيب بضرورة بقاؤه حتى تستقر حالته، لكنه رفض تماماً وقرر إخراجه على مسئوليته الشخصية بحجة نقله إلى مستشفى أفضل، ثم عاد به إلى منزله واتصل برجال زين ليأتوا إليه حتى يروه على تلك الحال، أخبرهم بأنه تعرض لحادث سيارة تسببت في فقدان مؤقت للذاكرة وطلب منهم إغلاق محاله التجارية والتوقف عن العمل تماماً حتى يُشفى، ثم قال لهم بأنه سيأخذه إلى أخيه ليبقى عنده حتى يرعاه، ولم يعطهم أية معلومات عن أخيه ولا مكان وجوده، وبعد أن انصرفوا أخذ زين وركبا سيارة أجرة ليذهبا إلى القرية، وأثناء الطريق نزل ناصر عند إحدى المدن ومعه زين، ثم أخذه إلى أحد المساجد وتركه هناك وانصرف ليكمل طريقه وحده نحو القرية، ظل طوال الطريق يفكر فيما سيفعله وأين سيذهب هل يذهب إلى منزل زين؟ لكن لو فعل ذلك لاقتلع سليم عينيه من محجريهما فهو لا يثق فيه مطلقاً كما أنه سيثير شكوكه بشأن زين، فقرر الذهاب إلى خالد فهو طيب القلب ولن يتخلى عنه.

وبعد أن بقي في منزل خالد وعمل معه ورأى مدى غناه وكثرة أمواله، خطر بباله أن يجد وسيلة للاستيلاء عليها دون أن يظهر هو في الصورة، فالأمر أصعب بكثير مما فعله مع زين، فكانت هدير هي المفتاح الذي قد يحقق له مراده أخذ يفكر في حيلة يدخلها بها إلى القرية وقبل أن تكتمل خطته فوجئ بعودة حسين وهو الأمر الذي لم يكن يضعه في حسبانه مطلقاً، ظن أن الأمور ستصبح أكثر تعقيداً، لكنه لاحظ الغيرة الشديدة التي تشتعل بها نفس حسين من أخيه خالد ومدى الحقد الذي ينخر في جوفه، خاصة عندما كانا يتحدثان ذات مرة ففاجئه تساؤل طرحه عليه حسين:

-"إذا مات خالد فمن يرثه وليس له زوجة ولا أولاد؟!"

اتسعت عينا ناصر ثم أجابه وقد فهم ما يدور في رأسه وقرر استغلال الفرصة ليشعل جذوة الفكرة الشيطانية في عقله، فأجابه في خبث وهو يبتسم قائلاً:

-"لا أحد غيرك بالطبع"

اتسعت ابتسامة حسين وقال في تعجب:

-"ذلك الفتى يحيرني، ليس من المعقول أن يكون قد جنى كل تلك الأموال من نصيبه في إرث الجدة! أشعر أن في الأمر سر كبير"

مع تلك العبارة تحديداً اكتملت الخطة في ذهن ناصر وبطبيعة الحال لم يخبر حسين بما ينوي فعله، حتى أتى اليوم الذي أخبره فيه حسين بحاجته إلى مساعدته في التخلص من خالد، وبرغبته في قتله!

أعجبت ناصر الفكرة فأخبره بالخطة التي رسمها وهي أن يجعل خالد يقع في شباك هدير حتى يثق بها تماماً، ثم يأتي الشق الآخر من الخطة وهي أن تستدرجه ليقتله ناصر على نحوٍ يدينها هي وحدها، وبالتالي يرث حسين أمواله جميعها ويقتسمها معه.

شرع ناصر في تنفيذ خطته، فاتصل بهدير لتقابله في البلدة المجاورة، وهو على يقين تام بأنها لن ترفض له طلب خاصةً إذا صدقت أنه ينوي الزواج منها، وبالطبع لم يخبرها بخطته الحقيقية كل ما أخبرها به أنه يريد معرفة سر ثروة خالد، وبالفعل اتفقا على كل شيء وأعطاها مفتاح منزل زين، ويوم وصولها القرية انتظرها

خارجها ليدلها على الطريق إلى منزل خالد، ثم نفذت هي باقي الخطة بنجاحٍ باهر، لكنه لم يكن يتوقع وجود سر حقيقي يخفيه خالد، فتفاجأ كثيراً حينما أخبرته هدير بأمر الكنز الذي عثر عليه خالد في أرضه، وأخفى الأمر عن حسين حتى يستحوذ عليه وحده!

****

أنهى خالد سرد ما رآه على مسامع سليم، لم تكن الصورة لديه كاملة فالكثير من التفاصيل لم يعرفها بالطبع لكن ما رآه كان كافياً ليعلم بما فعله ناصر مع زين وكيف تركه على تلك الحالة بداخل المسجد وغادر، وسبب قدومه إلى البلدة واتفاقه مع حسين على قتله لأخذ أمواله!

بكى سليم كثيراً، بكى كما لو لم تعرف عيناه الدمع من قبل، شعر بتقصيره الكبير في حق أخيه، كيف اكتفى بالسخط والغضب منه ولم يسعَ لمعرفة سبب عدم اتصاله به كل تلك الفترة، وبدأت تساوره الشكوك حول مصيره وإن كان سيراه ثانيةً ام أن القدر سيعاقبه لتخاذله عن البحث عنه وسيحرمه من رؤيته إلى الأبد!

ظل طوال الطريق صامتاً يرزح الهم على كتفيه، غارق في بحر أمواجٍ متلاطمة من الأفكار يلوم نفسه ويفكر فيما أصاب أخيه.

"هيا يا سليم لقد وصلنا" انتزعته عبارة خالد من شروده فنظر إليه وأومأ برأسه إيجاباً، ثم نزلا إلى المدينة التي كانت تبعد عن قريتهما نحو 150 كيلومتر، قال خالد في حزم:

-"رأيت صورة المسجد بوضوح كان اسمه "مسجد الإخلاص""

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق ليصلا إليه، بعد أن استقلا سيارة أجرة وأخبرا السائق عن وجهتما فكان الأمر أبسط مما توقعا، نزل سليم يهرول إلى داخل المسجد يبحث عن أحد يسأله، وجد عامل نظافة فسأله عن شاب مريض تركه أحدهم في المسجد وحده منذ فترة، وأظهر صورته على هاتفه ليريه إياها، زوى الرجل بين حاجبيه وهو يدقق في الصورة لكنه لم يتعرف عليه، فأخبره بأن ينتظر وصول الإمام لعله يعرف عنه شيئاً، جلس سليم يبكي وقد أحكم الخوف قبضته على قلبه،

وظل يتضرع إلى الله ليسامحه ويرشده إلى طريق أخيه، ثم وصل الإمام أخيراً فهب نحوه راكضاً ليسأله، نظر إليه في إشفاق وهو يقول:

-"نعم أتذكر ذلك الشاب ظللت أبحث عن أحدٍ يعرفه ولما فشلت في ذلك، أخذته إلى دارٍ للمشردين تدعى "الأمل"، ولا أعرف عنه شيئاً منذ ذلك الحين"

شكراه خالد وسليم كثيراً على معروفه، وانطلقا راكضين إلى خارج المسجد ليستقلا أول سيارة أجرة قابلتهما ويتجها إلى الدار، وصلا ودخلا يسألان عن زين، أخبرته إحدى المشرفات أنه كان عندهم بالفعل لكنه هرب من الدار فجأة قبل أسبوع!

فأبلغوا الشرطة عن اختفائه، والتي قامت بدورها بالبحث عنه في أرجاء المدينة بأكملها لكنهم لم يعثروا له على أثر، شعر سليم بأنه فقد قدرته في السيطرة على قدميه وكان على وشك السقوط فأمسك به خالد وقلبه يعتصر ألماً، أين سيبحثون عنه الآن؟ هل ضاع إلى الأبد؟! ثم اتسعت عيناه فجأة فأخذ سليم خارج الدار وأخبره بما يدور في ذهنه:

-"ربما يكون قد استعاد ذاكرته!"

حدق فيه سليم في شرود وهو يقول مستنكراً:

-"كيف يعقل ذلك؟ إن كان ما تقوله صحيحاً فلماذا لم يعُد إلى القرية أو يتصل بي؟!"

أجابه في ثقة:

-"لأن آخر ما يذكره هو ما فعله به ناصر، وبالتالي أول ما سيفكر فيه هو الانتقام منه!"

رنَّ هاتف خالد في تلك اللحظة، اتسعت عيناه في دهشة فقد كان الاتصال من أحد رجاله الذين كلفهم بحراسة ناصر وهدير حتى عودته، أجاب على الفور فجاءه صوته منفعلاً يقول:

-"حدث أمر غريب للغاية يا خالد، اقتحم المستودع عدد كبير من الرجال المدججين بالأسلحة البيضاء وقاموا بالاشتباك مع رجالنا، لكننا لم نقوَ على التصدي لهم، ثم أخذوا ناصر وانصرفوا"

بكل لوعة الدنيا سأله خالد:

-"وهل أخذوا هدير أيضاً؟"

أجابه:

-"لا! أخذوا ناصر فقط أما الفتاة فظلت تصرخ في فزع من هول الموقف حتى انهارت تماماً وفقدت وعيها"

زفر خالد في ارتياح وطلب منه أن يعيدها إلى بلدتها يكفيها ما عاشته حتى الآن، ثم أمره منه أن يغلقوا المستودع ويعودوا إلى القرية لكن مع حرصهم ألا يعرف حسين أي شيء عما حدث حتى يعود، بعدها أنهى المكالمة.

بنظراتٍ حذرة سأله سليم:

-"ما الذي حدث؟"

فأجابه خالد بنبرةٍ واثقة:

-"لقد فعلها زين!"

****

فتح زين عينيه ذات صباح ليجد نفسه راقد على سرير في مكانٍ غريب، تحرك في دهشة محاولاً معرفة أين هو؟ حتى عرف أنه في دار للمشردين، اعتصر ذهنه في قوة ليتذكر كيف وصل إلى هذا المكان، لكن آخر ما يذكره هو أنه كان يتشاجر مع ناصر قبل أن يضربه، ذهنه مشوشاً للغاية لا يستطيع التركيز جيداً، فضل البقاء صامتاً حتى استعاد اتزانه بعض الشيء وبعد يومين قرر الهروب من الدار، وبالفعل نجح في ذلك لكنه أدرك بأنه ليس في بلدته فاستقل سيارة أجرة وعاد إلى منزله وليس في رأسه شيء سوى الانتقام من ناصر، اتصل برجاله فأخبروه بما حدث قبل اختفائه وكيف كانت حالته لا يتذكر شيئاً وأن ناصر أخبرهم أنه سيوصله إلى أخيه

ومنذ ذلك الحين ولم يروه ثانيةً، فأمرهم أن يحضروا له رجال ناصر من تحت الأرض، وهددهم حتى عرف منهم أمر التجار وأنهم يبحثون عن ناصر في كل مكان!

خطر بباله أن يكون قد عاد إلى القرية فهو المكان الذي لا يعرفه أحد والأنسب للاختباء، وتأكدت شكوكه حين بحث عن مفتاح منزله الذي في القرية ولم يجده، فكر

في وسيلة يتأكد بها من وجوده هناك دون أن يعرف ناصر بأنه استعاد ذاكرته حتى لا يهرب، أراد أن يعد له انتقاماً مناسباً لما فعله به، فأرسل أحد رجاله إلى القرية ليعرف ما يحدث، لكنه لما عرف بوجوده عند خالد، خشي أن يتخذ أي فعل قد يؤذي خالد أو يعرضه للخطر، حتى عرف ما حدث لناصر وبأن خالد وسليم احتجزاه بداخل المستودع، فوجدها فرصة ملائمة تماماً لإبلاغ التجار الذين لم يترددوا للحظة في أن يرسلوا رجالهم إليه لينتقموا منه.

****

عاد خالد وسليم إلى القرية، لم يصدق سليم عينيه حينما وجد زين يصل إلى منزله بعده بدقائق يليه حسين، اعتصره سليم بذراعيه وبكى على كتفه وهو يردد:

-"سامحني يا زين!"

ربت زين على ظهره قائلاً:

-"كانت غلطتي من البداية، لا يمكنك مرافقة ذئب وتتوقع بألا يفترسك"

تطلع خالد فيهما بتأثرٍ كبير ثم رمق حسين بنظرةٍ خاطفة، لم يكن قد علم بعد بما حدث لناصر، فباغته خالد بسؤالٍ لم يتوقعه قائلاً:

-"لقد غادر ناصر ولن يعود قريباً فماذا ستفعل؟ هل ستنفذ الخطة وحدك؟"

امتقع وجه حسين وظن بأن ناصر قد وشى به وأخبر خالد عن اتفاقهما، فتلعثم واصفر لون وجهه، ثم قال بصوتٍ مرتجف:

-"ذلك الشيطان هو من عبث برأسي، بالتأكيد لن أفعل! أنا في غاية الندم والأسف على كل ما حدث، سامحني يا أخي!"

كان خالد قد أخرج البرواز من حقيبته بعد أن انتهى من سؤال حسين، وأمسك به في يده، فنظر إليه حسين أثناء إجابته نظرةً سريعة لكنها كانت كافيةً ليرى خالد حقيقة نواياه، لكنه شعر بأن يده قد تجمدت!

تمنى لو كان حسين صادقاً، فقد رغبته في معرفة الحقيقة واختار هذه المرة ألا يرى!

عاد خالد إلى منزله وهو غارق في بحر من الخذلان، وبداخله إعصار جارف من الحزن والألم، يحمل في يده البرواز، ظل حائراً يفكر ماذا لو لم يعرف حقيقة من حوله؟ أيهما أفضل أن نعلم الحقيقة أم أن نجهلها؟ قلَّب البرواز في يده وهو يفكر في عمق ماذا سيفعل به؟ اختار جده عبد الغفار أن يتخلص منه، أما هو فاتجه إلى ردهة المنزل وعلقه مكانه، وقد اتخذ قراره بأن يعرف الحقيقة مهما كان الثمن!

تمت

الكاتبة مها سيد عبد الرحمن كاتبة رواية

"جزيرة عين الأرض"

وثنائية سيڤارا "مملكة سيڤارا"، "ملحمة الدماء الزرقاء".

الصفحة الرسمية للكاتبة:

https://www.facebook.com/Maha-Sayed-Abdelrahman-مها-سيد-عبد-الرحمن-117973116713609/